﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ٤٥﴾ [الأنبياء:45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا استعجلوا عذابَ السّاعةِ أنذرهم بالوحي النّاطقِ بإتيانها وفظاعةِ أهوالها

بعد ما بُيّنَ من جهته تعالى غايةُ هولِ ما يستعجله المستعجلون، ونهايةُ سوءِ حالهم عند إتيانه، ونُعيَ عليهم جهلُهم بذلك وإعراضُهم عن ذكرِ ربِّهم الّذي يكلؤهم من طوارقِ اللّيل والنّهار وغيرُ ذلك من مساوئ أحوالهم أُمِرَ ﷺ بأنْ يقولَ لهم إنّما أنذركم ما تستعجلونه من السّاعةِ بالوحي الصّادقِ، النّاطقِ بإتيانها وبفظاعةِ ما فيها من الأهوالِ فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾[1].

إنذار الرّسول وتبليغاتُه وحيٌ من الله وأمرٌ منه تعالى

لَمّا كَرَّرَ ربُّ العِزَّة في القُرآنِ الأدِلَّةَ، وبالَغَ في التَّنبيه عليها على ما تقَدَّمَ؛ أتبَعَه بقولِه لنبيّه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾، أي: بالقُرآنِ الّذي هو كلامُ رَبِّكم؛ فلا تَظُنّوا أنَّ ذلك مِن قِبَلي، بلِ اللّهُ تعالى آتيكم به، وأمَرَني بإنذارِكم[2].

وَسَّطَ بالحديث عن الوحي لِلانْتِقال من عذابِ الإسْتِئْصال إلى عذاب النّار

لَمّا أراد أنْ ينتقلَ من عذابِ الاسْتِئْصالِ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الأنبياء:44] إلى عَذابِ النّارِ ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ وُسِّطَ بينهما بما هو مُهِمٌّ من حديثِ الوَحْيِ، وهو قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ تَوكيدًا؛ ليُتَخَلَّصَ منه إليه[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُنذِرُكُم﴾: (نذر) أصلٌ يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 353.

الإنْذارُ: الإبلاغُ، وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُم بَعْضًا، ونَذِرْتُ بِهِم فاسْتَعْدَدْتُ لَهُم وحَذِرْتُ مِنْهُم[1]، ولا يكون الإنذارُ إلا في التّخويفِ والتّحذير، ونَذِرَ بِالشَّيْءِ وبالعَدوِّ: نذْرًا عَلِمَهُ فحَذِرَه، وأنذَره أيضًا حذَّره وخَوَّفَهُ في إبلاغه، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ والمُخَوِّف[2]، والإنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ[3]، ومعنى ﴿أُنذِرُكُم﴾: موافقٌ للمعنى اللُّغَويِّ، أي: أُعْلِمُكُم وأُخَوِّفُكم وأُحَذِّرُكُم بأسَ الله وعذابَه بوحيٍ من الله[4].

2) ﴿بِٱلْوَحْيِ﴾: (وحى) أصلٌ يَدُلُّ على إلْقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِه إلَى غَيْرِك، فالوحْيُ: الإشارَةُ[5]، وقال الرّاغِب: أصلُ الوحي: الإشارةُ السّريعةُ والكتابة[6]، والوحيُ: الإشارةُ والكِتابَةُ والرِّسالة والإلْهام والكَلامُ الخَفيُّ وكلُّ ما ألقيتَه إلى غَيْرِكَ[7]، ثُمَّ غلبَ الوحْيُ على ما يوحيه اللّهُ إلَى أنْبيائِه، ويكون إمّا إلْهامًا، أو رُؤْيا، وإمّا أنْ يُنْزِلَ عليه كتابًا كما أُنْزِلَ على موسَى، أو قُرآنًا يُتْلى عليه كَما أنْزَله على سيِّدِنا مُحَمَّد ﷺ[8]، والمرادُ بالوحي في الآية: أي: بتنزيلِ اللّه الّذي يوحيه إليّ من عنده، أي: بهذا القرآن[9].

3) ﴿ٱلصُّمُّ﴾: (صمّ) أصْلٌ يَدُلُّ على تَضامٍّ الشّيءِ وزَوالِ الخَرْقِ والسَّمِّ، مِنْ ذَلِكَ الصَّمَمُ في الأُذُنِ[10]، والصَّمَمُ: انْسِدادُ الأُذُن، وثِقَلُ السَّمعِ، أو ذهابُ سَمعِها، والأصَمُّ هو الذي لا يسمعُ[11]، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسّةِ السّمع، وبه يوصفُ من لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يقبله[12]، والمراد بـ ﴿ٱلصُّمُّ﴾ في الآية: الكافرون المعرضون عن القرآنِ وما يُتلى عليهم من ذكرِ الله، فهُم بمنزلةِ مَن لا يَسمعُ؛ لعدمِ السّماعِ في كُلّ ما يُنذَرون[13].

4) ﴿يُنذَرُونَ﴾: (نذر) أصْلٌ يَدَلُّ على تَخْويفٍ أوْ تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (نذر).
(3) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 449، والقُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 292، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحى).
(6) الرّاغب، المفردات، ص: (وحى).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(8) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (وحي).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 449، والقُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 292، والبَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 52.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صمّ).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ تاج العروس: (صمم).
(12) الرّاغب، المفردات: (صمم).
(13) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 91، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.

وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُم بَعْضًا، ونَذِرْتُ بِهِم فاسْتَعْدَدْتُ لَهُم وحَذِرْتُ مِنْهُم[1]، ولا يكون الإنذارُ إلا في التّخويفِ والتّحذير، ونَذِرَ بِالشَّيْءِ وبِالعَدوِّ: نَذْرًا: عَلِمَهُ فحَذِرَه[2]، ومعنى ﴿يُنذَرُونَ﴾: يُخوَّفون[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـلاغٌ مـن الله أنّ التّخويفَ والإنذارَ لا يكون إلّا بوحيٍ مِنه سبحانَه

أوضح البيانُ القرآنيُّ أنّ الله تعالى يأمر نبيَّنا محمدًا ﷺ أن يقول للمُشركينَ القائلين ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنبياء: 5]: ما أُخَوِّفُكم منَ العَذابِ إلّا بوحيٍ مِن اللهِ، وهو القُرآنُ الّذي يُنَزِّلُه عليَّ، ولا أُحَذِّرُكم مِن قِبَلِ نَفسي، ثم أَمَرَهُ أنْ يبيّن لهم أنّ الكافرَ بالله لا يصغي بسمعِ قلبه إلى تذكّرِ ما في وحي الله من المواعظِ والذِّكْرِ، فيتذكّرَ به ويعتبر، فينزجرَ عمّا هو عليه، بل يعرضُ عن الاعتبارِ به والتفكّرِ فيه، كفعلِ الأصمّ الذي لا يسمعُ ما يُقال له ليعملَ به[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الفصل في الجملة:

تـهـكّـمٌ باستعجالِ الكافرين للوعدِ استهزاءً به

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ عن الّتي قبلها؛ لكونها جاءتِ ابتداءً استئنافيًا، قُصِدَ منه الإتيانُ على جميعِ ما تقدّمَ من استعجالهم بالوعدِ تهكُّمًا بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [الأنبياء: 38]، أي: عُقِّبَ به أمرُ الله لرسوله ﷺ أنْ يُخاطِبَهم بتعريفِ كُنْه دَعوتِه، وهي قَصْرُه على الإنذارِ بما سيَحُلُّ بهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنذارًا مِن طريقِ الوحيِ المُنزَّلِ عليه مِن الله تعالى وهو القُرآنُ[5].

دلالة الاستئناف بفعل القول بصيغة الأمر:

عبّر البيانُ الإلهيُّ بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نذر).
(3) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 3/ 290، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 467.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 449.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 77.

اهتمامٌ بالمقولِ وتعريفٌ بأنّ رسول الله ﷺ مُنذِرٌ بالوحي

﴿أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾؛ لبيانِ كُنْه دعوته ﷺ، وهي قَصْرُه على الإنذارِ بما سيحُلّ بهم في الدنيا والآخرة إنذارًا من طريقِ الوحي المنزَّل عليه من الله تعالى وهو القرآن، أي: إنّ هذا الأمرَ من عندِ الله سبحانه، وإنّ النَّبي ﷺ ليس سوى مُبلِّغٍ ومنذِرٍ ورسولٍ أمينٍ، فلا تُعرِضوا عن الله وقرآنه، ولا تَتَطَلّبوا منّي آيةً غيرَ ذلك، ولا تسألوا عن تعيينِ آجالِ حلولِ الوعيد، ولا تحسِبوا أنّكم تُغيظونني بإعراضكم والتوغّلِ في كفركم[1].

ولبيانِ علوِّ مقامِ الرّسالةِ، ومقامِ النّبيّ ﷺ، بجعله الوحيدَ المكلّفَ بإبلاغهم وإنذارهم، وفيه كذلك دلالةٌ على الاهتمامِ بالمقولِ، فإنّ أصلَ الأمرِ بالقولِ في مقامِ التّصدّي للتّبليغِ دالٌّ على الاهتمام.

بلاغةُ أسلوب القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

بيانٌ بطلان ادّعاء المشركين بأنّ إنذارَهم من عند النَّبيِّ ﷺ لا من عند الله

المقصورُ به في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾: ﴿إِنَّمَآ﴾، والمقصور: ﴿أُنذِرُكُم﴾ وهو الموصوف، والمقصورُ عليه: ﴿بِٱلْوَحْىِ﴾، وهو جارٌّ ومجرور يحملُ صفةً تدلّ على معنى قائمٍ فيه، وهي صفةُ كونِ إنذارِ النَّبيِّ ﷺ لهم بالعذابِ من طريقِ الوحي وهو القرآن، والمقصورُ عنه: (كلّ الصّفاتِ ما عدا صفةِ كون الإنذارِ بالعذابِ من طريقِ الوحي)، ونوعُ هذا القصرِ باعتبارِ المقصورِ والمقصور عليه: قصرُ موصوفٍ على صفةٍ[2]، ونوعُه باعتبارِ الحقيقة والواقع: قصرٌ إضافيّ، وهو قصرُ قَلْبٍ؛ إذ كان الكافرون يدّعون أنّ إنذارَ النَّبيِّ ﷺ لهم بالعذابِ هو مِن عند نفسه، فيطلبون منْه آيةً غيرَ القرآن، ويسألونه تعيينَ آجالِ حُلولِ الوعيدِ، ويظنّون أنّهم بذلك يُغيظونه بإعراضهم والتوغّلِ في كفرهم، فقلبَ عليهم ادّعاءهم مبيّنًا لهم بهذا القصرِ أنّه لا ينذرهم إلا بوحيٍ من الله تعالى، لا من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.

عندِ نفسه[1]، وأنّ ذلك يوجبُ عليهم ألا يستهزئوا بالإنذارِ؛ لأنّهم لا يستهزئون بالنّبيّ ﷺ إنّما يستهزئون باللّه العليِّ العظيم الّذي يلجؤون إليه في شدائدهم في البرّ والبحر، وفي ذلك توكيدٌ للإنذارِ والتخويفِ؛ لأنّه صادرٌ عن اللّه تعالى، واللّهُ لا يخلفُ الميعاد[2].

سرّ التّعبير عن الإنذار بالمضارع:

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الإنذارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ بصيغةِ المضارع؛ للدّلالة على تَكَرُّرِ إنذارهم بإنذاراتٍ كثيرة، واستمرارِ هذا الإنذارِ من النّبيّ ﷺ لهم، وفي هذا إشارةٌ إلى حِلْمِ اللّه سبحانه ورحمتِه؛ إذ لا يُعجّل لهم العذاب، وعلى الرّغم من ذلك استمرّوا في تصامّهم عن سماعِ هذه الإنذاراتِ المتكرّرة.

الإنذاراتُ المتكرّرةُ بالوحي النّاطقِ إشارةٌ إلى حِلْمِ الله ورحمته

بلاغة التّصريح بالوحي:

صرّح القرآنُ بلفظ (الوحي) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ - مع أنّ الأمرَ قائمٌ بين الكافرين وبين النَّبيِّ ﷺ على أنّ ما يُنذرهم به هو الوحي -؛ تشنيعًا على الكافرين للغفلةِ المطبِقةِ عليهم، فالذي يُنذرهم به النّبيُّ ﷺ هو من الوضوحِ بحيث لا يخفى على ذي عقلٍ ونظرٍ أنّه وحيٌ من عند اللّه، ولكن أنّى للصُّمِّ أنْ يسمعوا؟! فكان لا بدّ أنْ يُنخَسوا هذه النَّخسةَ، وأنْ يُقال لهم عن هذا النّور: إنّه نورٌ!![3]، كما أنّ في التّصريح بالوحي الصّادق النّاطق وهو من المسموعات مناسَبةً لذكر الصَّمَم، والصُّمُّ همُ المُنذَرون[4].

تشنيعٌ على الكافرين للغفلةِ المطبِقةِ على عقولِهم وقلوبهم

معنى الواو في قوله ﴿وَلَا يَسْمَعُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾؛ إمّا للعطف على ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾، وهو عَطْفُ استئنافٍ على استئنافٍ؛ لِأَنَّ

الواو بين الاستئنافِ والعطفِ والحاليّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 905.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434.

التَّذييل من قبيل الاستئناف[1]، أي إنّ قوله: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ من تتمّة الكلام الملقّن، تذييلٌ له بطريق الاعتراض قد أُمرَ عليه الصّلاة والسّلام بأنْ يقوله لهم توبيخًا وتقريعًا وتسجيلًا عليهم بكمالِ الجهلِ والعِناد[2]، أو أنْ تكون استئنافيّةً، ويكونَ قولُه: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ من جهته تعالى على طريقةِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء:42]، وتؤيّده القراءةُ على خطابِ النّبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، كأنّه قيلَ: قُلْ لَهُم ذلك وأنتَ بمعزلٍ من إسماعهم[3]، أو أنْ تكونَ حاليّةً[4]، والمعنى: إنّما أنذركم بالوحي الآتي به المَلَكُ عن اللّهِ، والحالُ أنّكم لا تَسمعون، وذلك على قراءة الجماعة ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾، أمّا على قراءةِ ابن عامر: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ فالحالُ أنّك لا تُسمعهم[5].

توجيه النفي بلا:

عبّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ بأداةِ النّفي (لا)؛ دون (لن) التي تدلّ على تأكيدِ النّفي أو تأبيده، فلم يقلْ مثلًا: (ولن يَسمَعَ الصُّمُّ الدّعاءَ)؛ إشارةً إلى إمكانِ إيمانِ بعضِ الكافرين، وحثًّا لهم على الإيمانِ، وهذا ما كان، فإنّ مِن المخاطَبين مَن آمنَ بعد نزول هذه الآيات؛ إذ السُّورة مَكّيّةٌ.

إشارةٌ إلى إمكانِ إيمانِ بعضِ الكافرين وحثٌّ لهم على الإيمان

سرّ إيثار حاسّة السّمع:

آثرَ البيانُ الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ذِكْرَ حاسّةِ السّمعِ؛ للإشارةِ إلى زيادةِ إعراضهم عن الحقّ؛ لأنّ حاسّةَ السّمعِ

نسبةُ الصّممِ للمشركين بيانٌ لزيادةِ إعراضِهم عن الحقّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 319.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 427، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 323.

هي أوّلُ نافذة للعلم عند الإنسان، وهي أوّلُ حواسّه عملًا، فهو الإدراكُ الأوّل المصاحِبُ لتكوينِ الإدراكاتِ، فقبلَ أنْ يتكلّمَ الطفلُ لا بُدَّ أنْ يسمعَ أولًا؛ لينطقَ ما سمعه، والسّمعُ هو الآلةُ التي لا تتعطّل عن مَهَمّتِها، حتى ولو كان الإنسانُ نائمًا؛ لأنّ به يتمّ الاستدعاء[1]، ولذا كان من عادةِ القرآن الكريم تقديمُ السّمع على البصر[2]، والسّمعُ كذلك أشرفُ نِعَمًا وأعظمُ نَفْعًا من البصر[3]، وهو طريقُ تَلقّي الوحي[4]، ووسيلةُ بلوغِ دعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأممِ على وجهٍ أكملَ من بلوغها بواسطة البصر[5].

فائدة التّعبير بفعل ﴿يَسۡمَعُ﴾ مضارعًا:

جاء التّعبيرُ عن فعلِ السّمع بصيغةِ المضارع التي تدلّ على التّجدّد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾؛ للإشارةِ إلى المبالغةِ في إعراضهم هذا عن الحقّ، وبيانِ كمالِ جهلهم، وشدّةِ عنادهم، وانطماسِ بصائرهم؛ فهم مستمرّون في التّصامّ عن سماعِ الحقّ سماعَ استفادةٍ.

استمرارُ المشركين في التّصامّ عن الحقّ دليلٌ على انطماسِ بصائرهم

وجه التّعريف في ﴿ٱلصُّمُّ﴾:

أل التَّعريف في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إمّا عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذِكْريٌّ؛ وهم المشركون المعرِضون عن القرآن المخاطَبون بالإنذار ﴿أُنذِرُكُم﴾، والتقديرُ: (ولا يسَمعون إذا ما يُنْذرَون)[6]، أو جنسيّةٌ تفيدُ الاستغراق، ودخَلَ في عُمومِه المُشركونَ المُعرِضون عن القُرآنِ، وهم المقصودُ مِن سَوقِ التَّذييلِ؛ ليَكونَ دُخولُهم في الحُكْمِ بطَريقةِ الاستدلالِ بالعُمومِ على الخُصوصِ[7].

اللامُ للجنسِ المنتظمِ للمخاطبين انتظامًا أوّليًّا أو للعهد

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9550.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 152.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 345.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(6) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 119.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿ٱلصُّمُّ﴾:

الصَّممُ انعدامُ إحساسِ السَّمعِ عمَّنْ مِنْ شَأْنِه أنْ يَكونَ سَميعًا، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ مستعارٌ لعدمِ انتفاعِ الكافرين بالكلامِ المفيد الذي يحمل تخويفًا وإنذارًا لهم؛ فقد شبّه الكافرين بالصُّمِّ الذين فقدوا حاسّة السّمع، فطُوِيَ ذِكْرُهم، وصرّحَ بذكرِ المشبَّه به، وهذه استعارةٌ تصريحيّة[1]، فكان تَشْبيهًا لعدمِ الانتفاعِ بالمسموعِ بعدمِ ولوجِ الكلامِ صِماخَ المُخاطَبِ به[2].

تشبيه الكافرين بالصُّمِّ تقريعٌ لهم بتركهم سمعَ ما يجبُ أنْ يُسمعَ

وفي هذا ذمٌّ لهم وتقريعٌ بتركهم سماعَ ما يجبُ عليهم سماعه والانتهاء إليه، وقد تقولُ لمن تُقرّعه بترك ما تدعوه إليه: ناديتُك فلم تسمعْ[3].

وجه التّعريف في ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾:

(ال) تعريف ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إمّا جنسيّة تفيد العموم، أي حال المشركين كحالِ الأصمّ الّذي لا يسمعُ أيَّ دعاءٍ، وفي هذا مبالغةٌ في التشنيعِ عليهم لشدّةِ تصامّهم عن سماعِ الحقّ، أو اللام عهديّة، والمراد بالدّعاء دعاءُ الإنذار، أي: بيانٌ لحالِ المشركين؛ فهم لا يسمعون إنذارَ النَّبيّ ﷺ لهم حين دعاهم سماعَ انتفاعٍ؛ إذ لم ينتفعوا بما فيه.

في (ال) الجنسيّةِ مبالغةٌ لشدّةِ تصامِّ المشركين وفي (ال) العهديّةِ بيانٌ لحالهم

إيثار التّعبير بقوله ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ لفظَ الدّعاء - الذي هو عبارة عن النِّداءِ بصوتٍ عالٍ قويٍّ مرتفعٍ صادعٍ - على لفظ (الكلام) مثلًا، فلم يقل: (ولا يسمع الصُّمُّ الكلامَ)؛ لبيان كمالِ شِدّةِ الصَّمَمِ، وأنّهم لا تُجدي فيهم النُّذر[4]؛

إنذار المشركين بالأصوات العالية بيانٌ لكمالِ شدّةِ صممِهم

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 530.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 91.
(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.

ولمناسبةِ السّياقِ الذي عبّر فيه بالإنذار ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولحالِ هؤلاء المنذَرين[1]، فالخطابُ لأُناسٍ هم غايةٌ في الغفلة، فإنَّ الإنذارَ عادةً يكون بأصواتٍ عالية مكرَّرة مقارِنةٍ لهيئاتٍ دالّةٍ عليه، فإذا لم يسمعوها يكون صَمَمُهم في غايةٍ لا غايةَ وراءَها[2]، ولأنَّه المُطابِقُ للغرَضِ؛ إذ كان النَّبيُّ ﷺ داعيًا كما قال تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:108][3].

بلاغة التّذييل في جملة ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾:

اعتراضٌ فيه توبيخٌ للمشركين وتجهيلٌ لهم

جملةُ ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ من تتمّة الكلام الملقَّن، وهي تذييلٌ له بطريقِ الاعتراض، قد أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بأنْ يقولَه لهم تَوبيخًا وتَقريعًا وتَسجيلًا عليهم بكَمالِ الجَهلِ والعِنادِ، ويؤكّد ذلك ويناسبهُ السّياق الذي جاء كلُّه للغرضِ ذاته من تعريف (الصّمم)، أو من وضعِ المُظهَر ﴿ٱلصُّمُّ﴾ موضعَ المُضمَر، أو من التّعبير بلفظِ الدّعاءِ المناسبِ لحالِ هؤلاء المنذَرين[4].

فائدة وضع الظّاهر موضع المضمر:

تسجيلٌ على المشركين بالتّصامّ عن آياتِ الإنذار وإنكارٌ عليهم

وَضَعَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الظاهرَ ﴿ٱلصُّمُّ﴾ موضعَ المضمرِ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولا يسمعون إذا ما ينذرون)؛ للتسجيلِ عليهم بالتّصامّ[5]، أي: التّصريحُ بتصامّهم وسدِّ أسماعهم إذا أُنذروا، ولم يكن الضّمير ليفيد هذا المعنى[6]، أي: هم على هذه الصّفةِ من الجرأةِ والجسارةِ على التصامُمِ عن آياتِ الإنذار[7]، وللدّلالةِ كذلك على صدورِ إنكارٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 35.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434.
(7) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 119، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.

شديدٍ وغضبٍ عظيمٍ وتعجّبٍ مِن نُبُوِّ أسماعِهم عن الوحي، وعدمِ إصاختِهم لِما ينفعهم، وإمعانِهم في ركوب الغيّ، والتعسّفِ في متاهاتِ الضّلال، وهذا فنٌّ عجيبٌ تميّز به القرآنُ الكريم[1].

توجيه القراءة في قوله ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ﴾:

في القراءةِ الأولى تسجيلُ الذَّمِّ على المشركين وفي الثّانيةِ تسليةٌ لرسولِ ربّ العالمين

قرأ جمهورُ القرّاء ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ بفتح الياء من ﴿يَسۡمَعُ﴾، وبرفع ﴿ٱلصُّمُّ﴾ على أنَّه فاعِلُ ﴿يَسۡمَعُ﴾[2]، أي جُعِلَ الفعلُ للكافرين، والمعنى: أنَّهم تَرَكوا اسْتِماعَ ما يجِبُ عليهم استِماعُه وقَبولُه، وقد كانوا يسمعونَ ويبصرون، ولَكنَّهُم لم يستعملوا هذه الحَواسَّ استِعمالًا ينفعهم فصاروا كمن لم يسمعْ ولم يبصر[3]، وفيه معنى الذَّمِّ لِمن كان قادرًا على سماعِ الحَقِّ فتَرَك استِماعَه.

وقرأ ابنُ عامر: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ بالتّاء وضمِّها، وبفتح ﴿ٱلصُّمَّ﴾ على أنَّه مفعولٌ به لـ ﴿تُسۡمِعُ﴾[4]، أي: أنت يا محمَّدُ ﷺ لا تقدِرُ أنْ تُسمِعَ الصُّمَّ[5]، أي: لا تُسْمِعُهم دعاءَك؛ لأنّهم لا يَعونه، كما قالَ سُبحانهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر:22]، والصُّمُّ ها هنا المُعرِضونَ عمّا يُتْلَى عليهم من ذكرِ اللّه، فهم بِمَنْزِلَةِ من لا يسمع[6]، والمقصودُ من ذلك تسليتُه ﷺ، كأنَّ اللّه يقول له: أرِحْ قلبكَ ولا تعلِّقْه بهم، وارضَ بحكمِ اللّه فيهم[7]. فمن بلاغة القراءة الثانية أنها أجابت عن تساؤل قد يجول في خاطر القارئ: مَن الذي سيُسمِع هؤلاء الكفّار النِّداءَ بصوتٍ عالٍ قويٍّ مرتفعٍ صادعٍ؟ فكانت الإجابة في القراءة الأخرى التي فيها التصريح – عن طريق الخطاب – بأنه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 321.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 323.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات، ص: 467، وابن زَنْجَلَةَ، حجّة القراءات، ص: 468.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 323.
(5) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 119.
(6) ابن زَنْجَلَةَ، حجّة القراءات، ص: 468.
(7) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1201.

ﷺ هو من سيُسمِعُهم. وهذا الوحي إنما هو من الله جلَّ في علاه. فخلاصة القراءتين أنه من لم يلتفت إلى وعظ الرسول ﷺ، ولم يسمع عن الله ما يخاطبه به كان كالميّت الذي لا يسمع ولا يجيب.

دلالة ﴿إِذَا﴾ في قوله ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾:

تقييدُ تصامّهم عن سماعِ الحقّ بوقتِ إنذارِهم أبلغُ وأفظعُ

كلمة ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ظرفيّة زمانيّة، وفي التّعبيرِ بها تقييدُ نفيِ السماعِ بوقتِ الإعراضِ عند سماعِ الإنذار ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، مع أنَّ الصُّمَّ لا يسمعون الكلام إنذارًا كان أو تبشيرًا، وذلك لبيانِ كمالِ شدّةِ الصّمَمِ عندهم[1]؛ لأنّ مَن لا يَسمَعُ إذا خُوِّف؛ كيف يَسمعُ في غير تخويف!! فكان التّقييدُ بوقتِ الإنذارِ أبلغَ[2]، ولتَفظيعِ إعراضِهم عنِ الإنذارِ؛ لأنَّه إعراضٌ يُفضي بهم إلى الهلاكِ، فهو أفظعُ من عدمِ سماعِ البشارةِ أو التّحديث، ولأنّ التّذييلَ مسوقٌ عقبَ إنذاراتٍ كثيرة[3]، ولأنّ المقامَ مقامُ إنذارٍ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾[4]، أي: لَيْتهم يتغافلون عن نداءٍ عادي، إنَّما يتغافلونَ وينصرفونَ ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ حين يُخوِّفهم نبيُّهم عذابَ اللهِ، والإنذارُ والتَّحذيرُ أوْلَى ما يجبُ على الإنسانِ الاهتمام به، ففيه مصلحتُه، ومن الغباءِ ألّا يهتمَّ به[5].

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا يُنذَرُونَ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، للتّوكيد[6]، أي: وإنْ طالَ الإنذارُ والتّحذيرُ وتكرَّرَ؛ فهُم لن يسمعوا، مما يدلّ على شدّة تصامِّهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 256.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(4) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 256.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9551.
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.

وجهُ التّعبير عن الإنذار بالمضارع ﴿يُنذَرُونَ﴾:

استمرارُ تصامّ المشركين مع تكرارِ الإنذاراتِ تفظيعٌ لإعراضهم عن الحقّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الإنذار في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على تَكَرُّر إنذارِهم بإنذاراتٍ كثيرة، وعلى الرَّغم من ذلك يستمرّون في تصامّهم عن سماعِ هذه الإنذارات كلّما تكرّرت، ممّا يدلّ على تفظيعِ إعراضِهم عن هذه الإنْذارات المتكرّرة، مع أنّ الإنذارَ يكون عادةً بأصواتٍ عاليةٍ مكرَّرةٍ مقارِنةٍ لهيئاتٍ دالّةٍ عليه، فإذا لم يسمعوها يكون صَممُهم في غايةٍ لا غايةَ وراءَها[1].

سرّ بناء فعل الإنذار للمفعول في قوله ﴿يُنذَرُونَ﴾:

التّركيز على شدّةِ تصامّ المُنْذَرين لا على المُنْذِر

آثرَ البيانُ الإلهيّ التّعبيرَ بالمبنيّ للمفعول ﴿يُنذَرُونَ﴾ في قوله: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولم يأتِ بالمبنيّ للفاعل، فلم يقلْ: (إذا ما أنذرتهم)؛ للتّركيزِ على الحدثِ، وهو الإنذارُ، ولحصرِ الوعي فيه، وللإشارةِ إلى أنَّ الإنذارَ لا يكون إلا بطريقِ القرآن، ولا طريقَ غيرُه، ولزيادةِ التَّبكيتِ عليهم؛ أي: لشدّةِ تصامّهم لا يستمعون للقرآن من أيّ مُنذِرٍ كان، ولا يقدِرُ أحدٌ على إسماعِ هؤلاء الصُّمِّ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنذار والتّبليغ والوعيد والتّحذير والتّخويف:

الإنذارُ إبلاغٌ مع تخويفٍ فهو أنسبُ لمن لا يأبه فيُصمُّ سمعَه عن الدّعاء

الإنذارُ يدلّ في أصله على التّخوّفِ، وهو: الإعلامُ والإبلاغُ المَقْرونِ بالتّخويفِ والتّحذير[3]، أمّا التّبليغُ في أصله فهو الوصولُ إلى الشّيء[4]، وإلى المُرادِ[5]، والبَلاغُ: الانْتهاءُ إلى أقصى المقصدِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (نذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بلغ).

والمنتهى[1]، وبلَّغَ النّاسَ بالخبر: أوْصله إليهم، وأعْلَمَهم به، وأنهاه إليهم[2]، من غير تحذير أو تخويف فالإنذارُ أخصُّ من التّبليغ.

والوعيد أصْلُه من (وعَدَ) ويدلّ على تَرْجيةٍ بقولٍ، والوعد يُستعملُ في الخير والشرّ، والوعيدُ لا يكون إلا بِشَرٍّ[3]، فهو: تهديدٌ وتوعُّدٌ بالشّرّ، وإنذارٌ بما سيحدث[4]، وليس فيه إحسانٌ، وفي الإنذارِ إحْسانٌ من المُنْذِر؛ إذ يُعْلِمُ المُنذَرَ بالمخوَّفِ منه ليَحْذَره، والتّحذيرُ: أصلُه يدلّ على التَّحَرُّزِ والتَّيَقُّظِ[5]، والتَّخْويفِ وشِدّة الحَذر والفَزَعِ والتأهّبِ كأنّه يَحْذَرُ أنْ يُفاجَأ، وحذَّره من الشَّيءِ: أنذرَه ونبَّهه وجعله يَقِظًا[6]، والتّخويفُ أصلهُ يدلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ[7]، وهو توقّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومة، ويُضادُّه الأمن، ويُستعمل ذلك في الأمورِ الدّنيويّة والأخرويّة[8]، فالتّحذيرُ أخصُّ من الخوفِ[9]؛ لأنّه إخافةٌ تحملُ على الفَزَعِ والذُّعْرِ، ومن هنا كان اصطفاءُ لفظ الإنذار أنسبَ لِجحودهم وتَكبّرهم بوصفه تبليغًا مُقْترِنًا بالتّخويف.

(1) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بلغ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفَيّوميّ، المصباح المنير: (وعد).
(4) مَجْمَع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط، ومحمد محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حذر)، وابن منظور، لسان العرب: (حذر).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (حذر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (خوف).
(8) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(9) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 383.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»